

فلسفة الغزل في شعر ابن زيدون الأندلسي -دراسة وصفية تحليلية-

**The philosophy of love poetry in the works of the Andalusian poet Ibn Zaydun:
Adescriptive and analytical Study.**أسماء سوسي¹¹ جامعة 8 ماي 1945، قالمة (الجزائر)، مخبر الدّراسات اللّغوية والأدبية soussi.asma@univ-guelma.dz

تاريخ الاستلام: 2026/05/30 تاريخ القبول: 2026/09/13 تاريخ النشر: 2026/10/01

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تدارس فلسفة التجربة الشعرية للشاعر الأندلسي الفحل ابن زيدون، وتحليلها من منظور المنهج الوصفي بالتركيز على أهم أغراض الشعر العربي عنده، وهو الغزل الذي حفل بتصوير مظاهر بيئته الأندلسية بمختلف مؤثراتها الطبيعية والاجتماعية متوحيين في ذلك تأكيد مجموعة من النتائج التي تتمحور حول كلاسيكية هذا الغرض عند الشاعر، ومجاراته نهج الأقدمين فيه، فضلا عن الأثر السلبي والإيجابي الذي اضطلعت به ولأدّة بنت المستكفي فيه (الغزل)، ناهيك عن عدم استقلاليتها في البناء (بناء القصيدة) عند الشاعر عن الأغراض الأخرى، خصوصا ما تعلق منها بالمدح، والحنين، ووصف الطبيعة التي انعكست على غزله، وساهمت في إذكاء شاعريته، وإثراء شعره.

كلمات مفتاحية: فلسفة، الغزل، الشعر الأندلسي، ابن زيدون، وصف وتحليل.

Abstract:

This research paper aims to examine the poetic experience of the prominent Andalusian poet Ibn Zaydun and to analyse in through a descriptive approach, with particular emphasis on one of the most significant themes in his poetry: love poetry (ghazal). The study explores the ways in which his poems depict various aspects of the Andalusian environment through its natural and social influences. It further seeks to highlight a number of findings related to the classical nature of this poetic genre in Ibn Zaydun work and his adherence to the tradition of earlier Arab poets.

In addition, the paper examines both the positive and negative influence exerted by Wallada bint al-Mustakfi, the poets beloved on his poetic production. The study also demonstrates that love poetry in Ibn Zaydun oeuvre does not exist independently from other poetic purposes, particularly praise, nostalgia, and the description of nature, all of which are reflected in his ghazal poetry and contribute to the intensification of his poetic sensibility and the enrichment of his literary expression.

Keywords: The philosophy, Ghazal, Andalusian Poetry, Ibn Zaydun, Description and Analyse.

*المؤلف المرسل: أسماء سوسي.

1. مقدمة

ما من أحد جال بصره نحو رف من رفوف مكتبة أدبية، إلّا وارتسمت في ذهنه صورة جميلة عن دواوين أولئك الشعراء الذين سجلوا أنفسهم على خط التاريخ، وأجمل من هذا أن تتجه عناية غيرهم إلى توثيقها، وشرحها، والاحتفاء بها تحليلًا ودراسة؛ كونها ممثلة للضمير الجمعي، وشاهدة على تاريخ أمة في عصر من العصور، وسجلا لتجارب شعرية هي في أساسها تجارب لغة، ولا نخال ديوان الشاعر الأندلسي الفحل "ابن زيدون" إلّا كذلك، حيث لا يزال بكرا، ومادة خاما أمام دارسي الأدب ومتذوقيه للكشف عن كنوزه، ودرره حيث طرق فيه الشاعر كل الأغراض المعروفة عند شعراء المشرق من مدح، وهجاء، ورثاء، ووصف، وغزل استأثر بحظ الأسد في مدونة شاعرنا الشعرية، حيث شكل ثلثها تقريبا، وحملنا على تحليله وتدارسه من خلال الإجابة عن الإشكالات الآتية:

- إلى أي حد كان غزل ابن زيدون تقليديا وما علاقته بنظيره المشرقي؟
- هل استأثرت المرأة وحدها (المحبوبة ولادة) بهذا الغزل وكانت محورا أساسيا فيه؟
- إلى أي مدى اختلط هذا الغرض عند ابن زيدون بغيره من الأغراض الأخرى؟
- ما الأثر الذي اضطلعت به ولادة بنت المستكفي (محبوبة الشاعر) والطبيعة باعتبارها بديلا عند غيابها (ولادة) في شعره الغزلي تحديدا؟

2. مفهوم الغزل:

1.2 مفهوم الغزل لغة:

جاء في لسان العرب في مادة (غ ز ل) ما نصّه: "غزلت المرأة القطن والكتان وغيرها تغزله غزلا، ونسوة غزل- واسم ما تغزل به المرأة المُغزَل، والغَزْل: حديث الفتيان والفتيات". (منظور، 1956، صفحة 492)

وورد في المعجم الوسيط "غزل الصّوف غزلا: قَتَلَهُ خُيوطا بالمغزل، وغزل غَزْلًا: شَغَفَ بمحادثة النساء والتودّد إليهن فهو غَزَلٌ، وغازل المرأة: حادّثها وتودّد إليها". (العربية، (د ت)، صفحة 652)

وعليه يتضح اجماع المعاجم العربية على انطواء مصطلح الغزل على مفهومين أحدهما ماديّ يتعلق بعملية غزل الصّوف ونحوه، والآخر معنويّ مُرتبط بمحادثة النساء، والإفاضة في ذكرهنّ.

2.2 مفهوم الغزل اصطلاحا:

الغزل إطار مخصص للتعبير عن المشاعر الحبيسة، ونداءات الحبيبة البعيدة وذكريات الأيام السعيدة، وآلام الفراق، والعقبات التي تضعها الطبيعة والناس في سبيل لقاء المحبين. (بلاشير، 1986، صفحة 383)

ولقد أحبّ الرجل العربي منذ القديم، وكان ذلك معروف بين شعراء العرب، وكان بسواده حبّا ساذجا فطريا لا يتجاوز ذكر الحبيبة، والتغزل بها، ثم البكاء لفراقها، وكان غزلهم وصفا ماديا واقعيًا لتلك المرأة. (الفتاح، (د ت)، صفحة 22)

ومن منا لم تستوقفه تلك الدعوى للبكاء، وإن اختلفت الأمكنة، خاصة إذا كان ابن زيدون أحد أولئك الشعراء الذي حفل شعره الغزلي بتصوير بيئة الأندلس بمختلف مؤثراتها، وهو غرض جاري فيه شعراء المشرق من حيث المعاني والأساليب، ومن حيث نظرته لمحبوته الأميرة الشاعرة ولادة بنت المستكفي التي كانت محورا أساسيا

فيه، غير أن ذلك لا يعني اختصاصها به وحدها، فلم يجيء غزل الشاعر مستقلا عن باقي الأغراض، بل نلمس له حضورا في الكثير منها، لعل أهمها: المدح، والحنين ووصف الطبيعة، وهي أغراض سيفصل الحديث عن كل منها فيما ستجود به الدراسة من تحليل ومناقشة لفلسفة هذا الغزل عند شاعرنا . (عتيق، 1976، صفحة 167)

3. علاقة الغزل عند ابن زيدون بالغزل المشرقي:

طرق شعراء الأندلس كل الأغراض والفنون الشعرية المعروفة عند شعراء المشرق كالغزل، والمدح، والثناء، والهجاء، والمجون، فجاروا في هذه الأغراض الشعراء المشارقة أمثال البحتري، وابن الرومي، وأبي نواس وغيرهم من حيث المعاني والأساليب، وإن اختلفت طريقة التعبير فيها عندهم في بعض أجزاءها، (عتيق، الأدب العربي في الأندلس، 1976، صفحة 176)، حيث عالج الأندلسيون هذه الفنون نفسها معالجة جديدة من حيث المقدار لا من حيث النوع. (فروخ، 1981، صفحة 397)

وقد استوحى الفكرة شاعرنا القرطبي -ابن زيدون- أحد أولئك الشعراء الذين صدروا عن غزل تقليدي يجري في أكثره على نهج شعراء المشارقة المتقدمين وهو الذي يصدر به مدائحه، فيذكر الإبل التي حملته إلى دار الحبيبة، مع أن الإبل لم تحفل بها الأندلس في أيامه، وإنما حفلت بها زمن الأمير المرابطي "يوسف بن تاشفين"، فذكره لها في شعره إنما هو من باب تتبعه طريقة المدح القديم، من ذلك قوله في مدح "أبي الوليد محمد بن جهور" مستهلاً بالبكاء على الأطلال: (زيدون، ديوان ابن زيدون، 1990، صفحة 84، 85) (الطويل):

أَجَلٌ إِنَّ لَيْلَى حَيْثُ أَحْيَاؤُهَا الْأُسْدُ مَهَادَةٌ حَمَتَهَا فِي مَرَاتِعِهَا أُسْدُ
تَحُولُ رِمَاحُ الْخَطِّ دُونَ إِعْتِيَادِهَا وَخَيْلٌ تَمَطَّى نَحْوَ غَايَاتِهَا جُرْدُ

وليس من شك في أن هذا يدل على أنه طبع فنه بالطوابع العربية الأصيلة، لأنه كان يشعر بأن الشعر لا ينبغي أن ينفصل قديمه عن حديثه، ففرغ إلى جداوله المختلفة ينهل منها، محتذيا أمثلة سابقه، غير خارج عن قواعدهم، وقوالهم الفنية المرسومة، (زيدون، ديوان ابن زيدون، 1990، صفحة 38)

وعلى رأسهم "البحتري" الذي أحبه ابن زيدون، وأعجب به، وتبع أثره، وحاول محاكاته حتى عرف به واشتهر، وسمّاه الناس: "بحتري المغرب"، (زيدون، ديوان ابن زيدون، 2006، صفحة 16). ومما يدل دلالة واضحة على ذلك التأثير والمحاكاة، قصيدة ابن زيدون الفائية التي مدح بها "المعتصم" صاحب إشبيلية، وهنأه فيها بعيد الأضحى قائلا: (زيدون، ديوان ابن زيدون، 2006، الصفحات 188-191) (الطويل):

طَلَاقَةٌ وَجْهٍ فِي مُضَاءٍ كَمِثْلِ مَا يَرُوقُ فِرْنْدُ السَّيْفِ وَالْحَدُّ مُرْهَفُ
وَلَمَّا حَضَرْنَا الْإِذْنَ وَالْدَهْرُ خَادِمٌ نُشِيرُ فِتْمَاضِي وَالْقَضَاءُ مُصَرَّفُ
وَصَلْنَا فَقَبَّلْنَا النَّدَى مِنْكَ فِي يَدٍ بِهَا يُتْلَفُ الْمَالُ الْجَسِيمُ وَيُخْلَفُ

حيث استعار الشاعر الأبيات من قول البحتري: (البحتري، ديوان البحتري، 1300، صفحة 33)

وَلَمَّا حَضَرْنَا سُدَّةَ الْإِذْنِ أَخَرَّتْ رَجَالٌ عَنِ الْبَابِ الَّذِي أَنَا دَاخِلُهُ
فَأَفْضَيْتُ مِنْ قُرْبٍ إِلَى ذِي مَهَابَةٍ أَقَابِلُ بَدْرَ التَّمِّ حِينَ أَقَابِلُهُ
وَلَمَّا تَأَمَّلْتُ الطَّلَاقَةَ وَانْتَنَى إِلَيَّ بَبْشَرٍ أَنْتَسْتَنِي مَخَائِلُهُ

دَنَوْتُ فَقَبَّلْتُ النَّدَى مِنْ يَدِ امْرِئٍ كَرِيمٍ مُحَيَّاهُ سِبَاطُ أَنَامِلُهُ

وهكذا نرى أن ابن زيدون وإن عاش في بيئة تختلف عن بيئة المشاركة، إلا أنه ظل يقترض الصيغ والتعابير من المشرق القديم حتى لقب "ببحري المغرب"، وذلك راجع لسبين أولهما: طول النفس حيث جاءت أكثر قصائده في المديح والغزل طويلة، وثانيهما: أن ابن زيدون قد ولع بالزخارف الشعرية، إذ أكثر من الصنعة، فجاءت أبياته كشعر البحري غنية بالصّور البيانية، والمحسنات البديعية، (زيدون، ديوان ابن زيدون، 2006، صفحة 16)، غير أن إعجابه بالمشاركة لا يعني التقليد الأعمى، فله من المعاني الجديدة ما جعله في طليعة الأندلسيين ومن كبار شعراء العربية. (زيدون، ديوان ابن زيدون، 2006، صفحة 17).

4. اختلاط الغزل عند الشاعر بأغراض أخرى:

نهج ابن زيدون نهج الأقدمين من حيث تعدّد الموضوعات، وتشعب الأغراض فيما يخصّ الغزل، إذ لم يقصره على محبوبته "ولادة بنت المستكفي"، وإن كان لها بالغ الأثر فيه، وإنما اختلطت بغزله أغراض أخرى من مثل: الوصف، وخاصة ما تعلق منه بوصف الطبيعة والتغني بجمالها، بما فيها من قصور ورياض، وحدائق، أو حتى المدح الذي كان يصدره عادة بمقدمات غزلية يتغنى فيها بمجالس الشراب والغناء أين تتراءى له الحبيبة في كل ذلك. (البستاني، 1997، صفحة 164)

1.4. الغزل والمدح:

أكثر ما يبرز في شعر ابن زيدون اختلاط الغزل بالمدح في عدّة قصائد منها مدحه "لأبي الوليد بن جهور" في قصيدة له بعنوان "ملك يسوس الدهر" حيث استهل هذا المدح بمقدمة غزلية خميرية كان باعنا له عليها ما شهده المجتمع الأندلسي من مجالس الخمر واللّهو، والترف الباذخ يقول فيها: (الكامل)، (زيدون، ديوان ابن زيدون، 1990، صفحة 107، 109)

مَا لِلْمُدَامِ تُدِيرُهَا عَيْنَاكَ فَيَمِيلُ فِي سُكْرِ الصَّبَا عِطْفَاكَ
هَلَّا مَزَجْتَ لِعَاشِقِيكَ سَلَاقَهَا بِرُودِ ظَلَمِكَ أَوْ بِعَذْبِ لَمَاكَ
لِلْجَهْوِيِّ َ أَلْبِي الْوَلِيدِ خَلَائِقُ كَالرَّوْضِ أَضْحَكُهُ الْغَمَامُ الْبَاكِ
مَلِكُ يَسُوسُ الدَّهْرَ مِنْهُ مَهْدَبٌ تَدِيرُهُ لِلْمُلْكِ خَيْرُ مَلَكَ

كما يقول في أبيات أخرى: (الطويل)، (زيدون، ديوان ابن زيدون، 1990، صفحة 74، 77)

أَجَلْ إِنَّ لَيْلَى حَيْثُ أَحْيَاؤُهَا الْأُسْدُ مَهَاةٌ حَمَتَهَا فِي مَرَاتِعِهَا أُسْدُ
يَمَانِيَّةٌ تَدْنُو وَيَنَآي مَزَارُهَا فَسَيَّانٌ مِنْهَا فِي الْهَوَى الْقُرْبُ وَالْبُعْدُ
وَلَوْلَا السَّرَاةُ الصَّيْدُ مِنْ آلِ جَهْوَرٍ لَا عَوَزَ مَنْ يُعْدَى عَلَيْهِ مَتَى يَعْدُو

فانظر -رعاك الله- كيف تغنى في المجموعة الشعرية الأولى بالسيرة الحسنة للملك في ملكه، ونبيل أخلاقه، وفيض نداه مستثمرا المقدمة الغزلية الخميرية في ذلك، وكيف مهّد في المجموعة الثانية لمعنى الحماية من آل جهور لرعيّتهم، والوقوف بجنبهم بحماية الأسد للمهابة، إنها صورة في غاية الجمال.

2.4. الغزل والوصف:

من الفنون الشعرية التي خلدها الأندلسيون وصف الطبيعة بما فيها من محاسن جعلت شاعر الطبيعة الأكبر في الأندلس، وهو ابن خفاجة يهتف بجمالها قائلا: (خفاجة، (دت)، صفحة 86)

يَا أَهْلَ أُنْدَلُسٍ لِلَّهِ دَرْكُكُمْ مَاءٌ وَظِلٌّ وَأَنْهَارٌ وَأَشْجَارُ
مَا جَنَّةُ الْخُلْدِ إِلَّا فِي دِيَارِكُمْ وَلَوْ تَخَيَّرْتُ هَذَا كُنْتُ أَخْتَارُ
لَا تَخْشَوْا بَعْدَ ذَا أَنْ تَدْخُلُوا سَفَرًا فَلَيْسَ تُدْخِلُ بَعْدَ الْجَنَّةِ النَّارُ

ولم يتخلف ابن زيدون عن مسامرة هذا الاتجاه، فراح هو أيضا ينسج غزله بتوظيف زخم هائل من المناظر الطبيعية أحسن توظيف قائلا: (زيدون، ديوان ابن زيدون، 1990، صفحة 398، 399) (البيسيط)

إِنِّي ذَكَرْتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَاقًا وَالْأَفُقُ طَلَقٌ وَمَرَأَى الْأَرْضِ قَدْ رَاقَا
وَلِلنَّسِيمِ إِعْتِلَالٌ فِي أَصَائِلِهِ كَأَنَّهُ رَقٌّ لِي فَاعْتَلَّ إِشْفَاقَا
وَالرَّوْضُ عَنْ مَائِهِ الْفِضْيِ مُبْتَسِمٌ كَمَا شَقَّقْتَ عَنِ اللَّبَاتِ أَطْوَاقَا
نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهْرٍ جَالٍ النَّدَى فِيهِ حَتَّى مَالٍ أَعْنَاقَا

ما يلاحظ أن كل ما في الطبيعة متجاوب مع الشاعر: طلاقة الأفق، ومرأى الأرض، والنسيم، والروض، والزهر؛ إنه ينفخ فيها الروح، فيجعلها كائنات عاقلة تشاركه السعادة.

وقال الشاعر أيضا متذكرا قرطبة ومجالس أنسه فيها: (زيدون، ديوان ابن زيدون، 1990، صفحة 491، 492) (الطويل)

فَكَمْ لِي فِيهَا مِنْ مَسَاءٍ وَإِصْبَاحٍ بَكْلٍ غَزَالٍ مُشْرِقِ الْوَجْهِ وَضَّاحٍ
وَيَوْمٍ بِجَوْفِي الرُّصَافَةِ مُبْهِجٍ مَرَزْنَا بِرَوْضِ الْأُقْحُوانِ الْمُدْبِجِ
وَقَابَلْنَا فِيهِ نَسِيمَ الْبَنْفَسَجِ وَلَاحَ لَنَا وَرْدٌ كَخَدِّ مُضْرَجٍ

إنه الحب، حب الأرض الذي يولّد حب كل ما عليها، فيترجم الى التغني بكل ما بدا فيها على اختلاف شكله ولونه، وهنا تبدو خبرة الشاعر في رسم الصورة التي يريدها، فهو في معرض تذكر موطنه، وكل ما يهيج مشاعر تشوقه، وحنينه إليه، مما يبعث به على وصف كل جمال طبيعي محدّق به من روض، ونسيم، ومساء، وصباح، ووجه مشرق جميل جمال الطبيعة البديعة.

3.4. الغزل والحنين:

لا يخفى على أحد أن الإنسان يشبّ في وطنه، ويتمرّع في ترابه، ويأكل من خيراته، ويستنشق هوائه، ومهما نأى أو بعد فستظلّ ذكريات الطفولة والشباب تذكّره، ولهذا كان الذود عن الوطن من عقيدة الإيمان.

و لقد عاش ابن زيدون حياة غير مستقرة قضّاها هنا وهناك من قرطبة إلى إشبيلية وغيرها من المدن، وكان في كل مرة تنال منه وطأة الاغتراب يفزع إلى الشعر يبث فيه شوقه وحنينه إلى صديقه وأهله، وأحبابه، حيث يقول في ذلك: (زيدون، ديوان ابن زيدون، 1990، صفحة 491، 492) (الطويل)

عَلَى الثَّغْبِ الشَّهْدِيِّ مَيِّ تَحِيَّةٌ زَكَّتْ وَعَلَى وَادِي الْعَقِيقِ سَلَامٌ

وَلَا زَالَ نُورٌ فِي الرِّصَافَةِ ضَاكِ
بِأَرْجَائِهَا يَبْكِي عَلَيْهِ غَمَامٌ
وَصُحْبَةُ قَوْمٍ كَالْمَصَابِيحِ كُلُّهُمْ
إِذَا هُزَّ لِلخَطْبِ الْمَلِكِ حُسَامٌ
إِذَا طَافَ بِالرَّاحِ الْمُدِيرِ عَلِيمٌ
أَطَافَ بِهِ بَيْضُ الْوُجُوهِ كِرَامٌ

إن ابن زيدون خير من مثل في شعره طور الانتقال من الأدب الأموي إلى الأدب العباسي في الأندلس، فكان نتاجه بذلك صورة حية للشعر الأندلسي تقرأ فيه أجود ما خصت به الطبيعة الأندلسية من وصف المناظر، وشرح العواطف، وسمو الخيال، بحيث إذا تغزل أو تشوق، أو استعطف كان طبعه في هذه الأغراض فياضاً، وقلمه لشرحها مجيداً. (المغربي، 1964، صفحة 374)، وسبب ذلك ما قاساه من ظلم "ابن جهور" له، وما عاناه من نفور ولادة منه، وبعدها عنه، فكان حرياً به - إذا - وإن لم يخلق جديداً، وطبع على غرار أهل المشرق أن يحتلّ بين أدباء عصره، ومصره مكاناً رفيعاً.

4.4. أثر ولادة بنت المستكفي في شعره:

اضطلعت ولادة وحظيت بمكانة مرموقة من نفس الشاعر، ونتاجه الشعري، فقد كانت لهذه الشخصية - بكل تقلباتها - بالغ الأثر في إذكاء شاعرية ابن زيدون سواء ما يتعلق منها بالأثر الإيجابي الذي ولدته صلة الوصل والقرب بين العاشقين، فجادت قريحة الشاعر إثر ذلك بأجمل القصائد في غرض الغزل، أو ما اختصّ بالأثر السلبي الذي كان وليد القطيعة والهجران بين الحبيبين، مما دفع بالشاعر إلى الهجاء أحياناً، يقول: (زيدون، ديوان ابن زيدون، 1990، صفحة 338) (الخفيف)

قَدْ عَلِقْنَا سِوَاكَ عِلْقًا نَفِيسًا وَصَرَفْنَا إِلَيْهِ عَنكَ النُّفُوسَا
وَلَبِسْنَا الْجَدِيدَ مِنْ خِلْعِ الْحُجْ بَ وَكَمْ نَأْلُ أَنْ خَلَعْنَا اللَّيْسَا
لَيْسَ مِنْكَ الْهَوَى وَلَا أَنْتَ مِنْهُ إهْبِطِي مِصْرَ أَنْتِ مِنْ قَوْمِ مُوسَى

يتضح أن هذا الغزل الأندلسي ظلّ كأخيه المشرقي غزلاً حسياً تفنّن فيه الشاعر في وصف من وقع في حبه من نساء الأندلس الجميلات، وصور مشاعره المتضاربة تجاهها، وما أشبه ذلك من التجارب التي يدور الغزل حولها. أ. الأثر الإيجابي للوصل (الغزل):

إن ابن زيدون من الشعراء الذين صور نتاجهم الشعري الغزلي بدقة طبيعة وحقيقة العلاقة التي جمعتهم بمحبوبته ولادة، بحيث أصبحت قصتها أشهر وأطغى على ما سواها من قصص الحب والغزل الأندلسيين، لا شيء سوى أنها قصة تمثل العلاقة الأرستقراطية بين اثنين من السادة، أحدهما مخزومي النسب، وصاحبته أموية من بيت الخلافة. (عباس، 1997، صفحة 130)

ويغلب أن يكون ذكاء المرأة وثقافتها أشد جاذبية عند المتيمين بها من ميزاتها الحسية، إذ عادة يكون الميل المشترك بينهما إلى الشعر، أو الموسيقى وهو الخيط الرابط بين قلبيهما (الطاهر، 1999، صفحة 87) وذلك حال شاعرنا مع ولادة التي عشقها، وجرت له معها أخبار مشهورة، وكانت ولادة شاعرة تداعبه أحياناً بهجائها، وأخرى تضرب له بالشعر مواعيدها.

وغزل ابن زيدون في صاحبتة ولادة كان معبرا عن حياته، وأحواله أصدق تعبير، حيث بث فيه لواعجه، وهو بعيد عنها إما في السجن أو خارج قرطبة، فاجتمع له فيه (الغزل) الشوق، واللوعة، والألم، والشكوى، كما حفل بذكرات الأيام الماضية ومعاهد لهوه معها، فتترأى له في القصور، والرياض، والحدائق، وعلى مجالس الشراب، والغناء، وفي الحفلات، والأعياد، والمواسم، وكان الشاعر قلما يصرح باسم محبوبته بقدر ما يكفي عنها بذكر صفاتها الملوكية، معترفا بأنه دونها منزلة، ولكن الحب هو ما جعل بينهما تكافؤ، وفي ذلك يقول في أبيات من نونيته المشهورة: (زيدون، ديوان ابن زيدون، 1990، صفحة 390) (البسيط)

مَا ضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرْفًا وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَاثُفِنَا
لَسْنَا نُسَمِّيكَ إِجْلَالًا وَتَكْرِمَةً وَقَدْرُكَ الْمُعْتَلِي عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا

وقد توثقت عرى المودة بينهما، وتشاكى الصبابة، غير أن ولادة لم تلبث أن أشاحت بوجهها عنه، فتمنعت عليه، وأذاقته بعد نعيم قربها جحيم هجرها، ويذكر الرواة أن سبب هذا التمتع أن "عتبة" جارية ولادة غنتها يوما في أحد مجالسهما: (زيدون، ديوان ابن زيدون، 1990، صفحة 382)

أَحْيَيْنَا إِيَّيْ بَلَغْتُ مُؤَمَّلِي وَسَاعَدَنِي دَهْرِي وَوَاصلَنِي حَيِّي
وَجَاءَ يُهَيِّئِي الْبَشِيرُ بِقُرْبِهِ فَأَعْطَيْتُهُ نَفْسِي وَزِدْتُ لَهُ قَلْبِي

فسألها ابن زيدون الإعادة، فتجهمت ولادة، واتهمته بالميل إلى الجارية، ومغازلتها من دونها، فضربتها، فقال الشاعر في ذلك: (زيدون، ديوان ابن زيدون، 1990، صفحة 382) (الطويل)

وَمَا ضَرَبْتَ عُتْبَى لِدُنْبٍ أَتَتْ بِهِ وَلَكِنَّمَا وَلَادَةُ تَشْتَبِي ضَرْبِي
فَقَامَتْ تَجُرُّ الدَّيْلَ عَائِرَةً بِهِ وَتَمَسَّحُ طَلَّ الدَّمْعِ بِالْعَنَمِ الرُّطْبِ
وهكذا تحولت ولادة عن الشاعر، وسقته أزهار الهجر السامة.

ب. الأثر السلي للهجران (الهجاء):

انصرفت ولادة عن الشاعر الناقد الذي لم يملأ غرورها الفنى، واعتدى على سلطانها الأدبي لتجد عاشقا جديدا ليس شاعرا عاطفيا، بل وزيرا خطيرا هو "أبو عامر ابن عبدوس"، حيث علقتة ولادة، فهاجمه ابن زيدون بشدة يعاتبه تارة، ويهدده أخرى، غير أن ابن عبدوس لم يعبأ به، كما لم تستمع ولادة ما شكاه من آلامه، وتباريح حبه، وذلك ما دفعه الى التعريض بهما مما يعد ضربا من الهجاء حيث يقول: (زيدون، ديوان ابن زيدون، 1990، صفحة 384) (البسيط)

أَكْرِمِ بِوَلَادَةٍ دُخْرًا لَمُدَّخِرٍ لَوْ فَرَّقَتْ بَيْنَ بَيْطَارٍ وَعَطَّارٍ
قَالُوا أَبُو عَامِرٍ أَضْحَى يُلْمُهَا قُلْتُ الْفَرَّاشَةُ قَدْ تَدْنُو مِنَ النَّارِ
عَيَّرْتُمُونَا بِأَنْ قَدْ صَارَ يَخْلُقُنَا فَيَمَنْ نُحِبُّ وَمَا فِي ذَاكَ مِنْ عَارٍ
أَكُلْ شَيْءٍ أَصَبْنَا مِنْ أَطَائِبِهِ بَعْضًا وَبَعْضًا صَفَحْنَا عَنْهُ لِلْفَارِ

هذا رد فعل طبيعي إزاء الهجر والقلى الذي أذاقته الحبيبة للشاعر الذي لم يجعل من وسيلة أنجع سوى أن يعرض بها وبالوزير الذي اختارته بديلا من الشاعر، والذي لا يدانيه مكانة (لو فرقت بين بيطار وعطار)، حيث لم

تحسن ولادة الاختيار، وستدوق حتما ويلاته (سوء الاختيار)، بيد أن ابن زيدون على الرغم مما ألحق به من عار بان قد صار يخلفه آخر على من يحب إلا أن ذلك الهجر -في نظره- لم يكن عارا بقدر ما فسره إيجابيا، إذ أنه أصاب من هذا الحب كل المنتهى وقمة الشبع، فما كان منه إلا أن يصفح عما تبقى منه للوزير، وتلك قمة الإطاحة والخط من المكانة .

وقد كان لهذا الهجران بالغ الأثر على الشاعر، حيث بكى، وأن، واستعطف، وشكا، لكن دون جدوى، وفي ذلك يقول: (زيدون، ديوان ابن زيدون، 1990، صفحة 424) (البسيط)

أَمَّا رِضَاكَ فَفَعِلْتُ مَالَهُ تَمَنُّ لَوْ كَانَ سَامَحِي فِي وَصْلِهِ الزَّمَنُ
تَبْكِي فِرَاقَكَ عَيْنٌ أَنْتَ نَاطِرُهَا قَدْ لَجَّ فِي هَجْرِهَا عَنْ هَجْرِكَ الْوَسَنُ
إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِي عِنْدِي بِهِ حَسَنُ قَدْ حَالَ مُدْغَابَ عَيْنِي وَجْهَكَ الْحَسَنُ
أَنْتَ الْحَيَاةُ فَإِنْ يُفْذَرُ فِرَاقُكَ لِي فَلْيُحْفَرِ الْقَبْرُ أَوْ فَلْيُحْضَرِ الْكَفَنُ

يتمنى الشاعر لو سامحه الدهر في الوصل، لأن رضى حبيبته غال لا ثمن له، فعينه تبكي البعد عنها، وطار عنه النعاس بهجرها، وتغير الزمان الذي ظن به ظلًا حسنا مذ غاب عنه وجه محبوبته الحسنة التي تمثل له الحياة، وما دام فراقها قد فُذِرَ له، فليحفروا قبره، وليحضروا كفنه، فلا حياة له بعدها، وهذا حال المتيمم الذي بلغ منه الحب أيما مبلغ.

وعلى نحو ما وضعت الأغلال في يده، وسيق إلى السجن جرأ ادعاء الوزير ابن عبدوس عليه وتأمره مع المتأمرين في إطاحة الحكم الجمهوري، والاستيلاء على ضياع أحد مواليه عقب وفاته، كان طيف الحبيبة خير مؤنس له في (السجن)، فهو يستحضر صورتها، ويلبسها رداء الحسرة، والحزن، إنه فضاء (السجن) الذي تتداعى فيه الذكريات، حيث يقول الشاعر (زيدون، ديوان ابن زيدون، 1990، صفحة 43، 44)

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَبْكِي الْغَمَامُ عَلَى مِثْلِي وَيَطْلُبُ تَأْرِي الْبَرْقُ مُنْصَلَّتَ النَّصْلِ
وَهَلَا أَقَامَتْ أَنْجُمُ اللَّيْلِ مَأْتَمًا لِيَتَنَدَّبَ فِي الْأَفَاقِ مَا ضَاعَ مِنْ نَثْلِي
أَمَقْتُولَةَ الْأَجْفَانِ مَالِكٍ وَالْهَيَا أَلَمْ تُرِكَ الْأَيَّامُ نَجْمًا هَوَى قَبْلِي
أَقْلِي بُكَاءً لَسْتُ أَوَّلَ حُرَّةٍ طَوْتُ بِالْأَمْسَى كَشْحًا عَلَى مَضَضِ الثَّكْلِ

إن لفى خلوات السجن جولات، وفسحات في ذكريات الزمن الخوالي كما أن لقوانين الطبيعة تأثيرات على النفس، وشاعرنا يستفيد من هذا وذاك.

هـ. الغزل بالطبيعة "البديل عند غياب ولادة":

وجد ابن زيدون في الطبيعة الأندلسية الخلاصة ملاذا يلجأ إليه إذا ما تقلب وجه الزمان عليه، فيتغنى، ويتشبب بذلك الحسن في شعره، بل أكثر من ذلك يجعل من الطبيعة بعناصرها المختلفة صامته كانت (جامدة) أو متحركة (حية) معادلا موضوعيا لما تكايد نفسه من أفراح، وأقراح، فتكون حينئذ (الطبيعة) الأم الرؤوم التي تشاطره المشاعر، وتتقاسم وإياه الهموم والآلام، ولا سيما عند غياب المحبوبة، وتبعًا لذلك جاءت قصائد الشاعر حبلًا بهذه الدلالات منها قوله: (زيدون، ديوان ابن زيدون، 1990، صفحة 390) (البسيط)

يا رَوْضَةً طَالَمَا أَجْنَتْ لَوَاحِظَنَا وَرَدًّا جَلَاهُ الصَّبَا غَضًّا وَنَسْرِينَا
وَيَا حَيَاةً تَمَلَّيْنَا بِرَهْرَتِهَا مُنَى ضُرُوبًا وَلَدَاتِ أَقَانِينَا

إنّهما ذكريات الصَّبَا في روضة من الرياض الساحرة للعيون بما تحويه من أزهار النسرین الفوّاحة، وإنّهما لحياة المتعة والأمنيات المتنوعة التي قضى الشاعر رفقة محبوبته فيها أيام شبابه، وتصابيه، متغنّيًا بجمالها قائلًا: (زيدون، ديوان ابن زيدون، 1990، صفحة 410) (المجتث)

الشَّمْسُ أَنْتِ تَوَارَتْ عَنْ نَاطِرِي بِالْجَبَابِ
مَا الْبَدْرُ شَفَّ سَنَاهُ عَلَى رَقِيقِ السَّحَابِ
إِلَّا كَوَجْهِكَ لَمَّا أَضَاءَ تَحْتَ النِّقَابِ

عمد الشاعر إلى إحداث المطابقة بين محبوبته والشمس، فكأنّهما سيّان على الرغم من أن المطابقة أبعد ما يكون بينهما (الشمس وولادة) ليجعل الصورة واضحة جليّة للقارئ؛ حيث إنّ تجلّي وجه المحبوبة من تحت النقاب هي نفسها حالة تكشف الشمس عند الطلوع، فضلا عن أنّ غيابها (الحبيبة)، وبثها لروح القطيعة إنّما هي صورة مماثلة لصورة الشمس المتوارية عن نظرا الشاعر عند الغروب .

ولقد مرّ بنا أنّ الشعراء إذا تغزّلوا، شهبوا المرأة، بالغزال عند التشبيب، وذلك حال الشاعر ابن زيدون؛ حيث سار على خطى الأوائل في ذلك قائلًا: (زيدون، ديوان ابن زيدون، 1990، صفحة 464) (مجزوء الرمل)

يَا غَزَالًا جُمِعَتْ فِيهِ مِنْ الْحُسْنِ فُنُونُ
أَنْتَ فِي الْقُرْبِ وَفِي الْبُعْدِ مِنْ النَّفْسِ مَكِينُ
يَهْوَاكَ الدَّهْرُ أَلْهُو وَبِحُبِّكَ أَدِينُ
مُنِيَّةَ الصَّبِّ أَغْنِي قَدْ دَنْتَ مِنِّي الْمُنُونُ
وَاحْفَظِ الْعَهْدَ فَإِنِّي لَسْتُ وَاللَّهِ أَخُونُ

يؤكد الشاعر لغزاله الذي جمع فتون الحسن والجمال أنّه متمكّن من قلبه حالاً به أبد الدهر في القرب أو البعد، ويتمنى منه إغائة هذا الصَّب الذي احترق فؤاده بلظى الشوق والهيّام حتى دنت منه المنية، وحفظ العهد الذي جمعهما دون خيانة، فالشاعر مهما بدا من محبوبة باقي على عهده، وفيّ له.

5. خاتمة:

- نخلص إلى القول إنّ فلسفة الغزل في شعر ابن زيدون تتبلور من خلال عدة أبعاد أساسية تتمثل في الآتي:
- يمثل الغزل عند ابن زيدون تيارا وجدانيا وفلسفيا عميقا حيث تجاوز الوصف الحسي للمرأة إلى تجربة روحية وفلسفية قائمة على العذاب، والشوق، والحرمان وتقديس المحبوبة، وقد ارتبطت هذه الفلسفة بقصة حبّ الشهيرة للأميرة الشاعرة ولادة بنت المستكفي، لتصبح قصائده أيقونة للحبّ العذري في الأدب الأندلسي.
 - إنّ غزل ابن زيدون به نفحة من الشعراء الأوّلين، وإذا كان الانتساء على مستوى الديباجة، لذلك لُقّب ببحتري المغرب لطول نفسه الشعري، وولعه بالزخارف والصنعة.

- إنَّ غزله- وإن لم يكن متفردا في غالب الأحيان - فهو ملح لأغراض أخرى سواء أكان ذلك في مطالع القصائد أم في ثناياها.
- إنَّ الحادثتين اللتين تركتا طابعهما على شعر ابن زيدون هما: حادثة الحب، وحادثة السّجن؛ حيث أثّرتا عليه أيّما تأثير، لينعكس ذلك نتاجا شعريا صادق التعبير عن حياة الشاعر ومشاعره، زاخر الإحساس بآلامه وآماله فجاءت قصائده وجدانية خالصة.
- كما لا ننسى كرم الطبيعة الأندلسية في إثراء غزل الشاعر، وخصوصا ما يتعلق منها بقرطبة قاعدة الأندلس وأم مدائنهما، حيث دمج الشاعر بين مشاعره وعناصر الطبيعة من حوله ليجعلها مرآة تعكس حالته النفسية.
- إنَّ غزل الشاعر مرآة للواقع السياسي والذاتي، فلم يكن مجرد عاطفة بقدر ما كان تعبيرا رمزيا عن فقدان الوطن، واستيلا ب الهوية في ظل صراعات ملوك الطوائف، حيث يمثّل تمسّكه بالمحبة ولآدة تمسّكا بالقيم الأصيلة والجمال الذي ضاع في الأندلس.
- من المقترحات والتوصيات التي توصّلت إليها الدّراسة أنّ المدوّنة الشعرية لابن زيدون لا تزال بكرة، ومجالا خصبا للتقصّي وعميق الدراسة لا سيما أمام الباحثين المهتمين بالأدب الأندلسي تحديدا.

6. قائمة المراجع:

- ابن سعيد، المغربي. (1964). *المغرب في حلي المغرب*. مصر: دار المعارف.
- ابن خفاجة. (دت). ديوان ابن خفاجة. تحقيق كرم البستاني. بيروت. لبنان: مكتبة صادر.
- ابن زيدون. (1990). *ديوان ابن زيدون*. (ط1). تحقيق حنا الفاخوري. بيروت: دار الجيل.
- ابن منظور. (1956). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.
- إحسان، عباس. (1997). *تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين*. القاهرة. مصر: دار الشروق.
- الطاهر، أحمد مكي. (1999). *الشعر العربي في إسبانيا وصقلية*. القاهرة، مصر: دار الفكر العربي.
- بطرس، البستاني. (1997). *أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث*. بيروت. لبنان: دار الجيل.
- ثريا، عبد الفتاح. (دت). *القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه*. بيروت. لبنان: دار الكتب اللبناني.
- ابن زيدون. (1990). (دت). *ديوان ابن زيدون*. (ط1). تحقيق حنا الفاخوري. بيروت، لبنان: دار الجيل.
- ديوان البحترى*. (1300). (ط1). قسطنطينية: مطبعة الجوائب.
- روجيس، بلاشير. (1986). *تاريخ الأدب العربي*. (ط2). (ترجمة إبراهيم الكيلاني، المترجمون). تونس: الدار التونسية للنشر.
- شوقي، ضيف. (دت). *ابن زيدون*. (ط7). القاهرة. مصر: دار المعارف.
- شوقي، ضيف. (دت). *ابن زيدون*. (ط7). القاهرة. مصر: دار المعارف.
- عبد العزيز، عتيق. (1976). *الأدب العربي في الأندلس*. (ط2). بيروت، لبنان: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
- عمر، فزوخ. (1981). *تاريخ الأدب العربي*. (ط1). بيروت. لبنان: دار العلم للملايين.
- مجمع اللغة العربية. (دت). *المعجم الوسيط*. استنبول. تركيا: المكتبة الإسلامية.
- يوسف، فرحات. (2006). *شرح ديوان ابن زيدون*. بيروت. لبنان: دار الكتاب العربي.